

الفصل الثاني

• دور الإسلاميين في بعث الشخصية الجزائرية المقاومة

• المبحث الأول : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

• المبحث الثاني : دور ابن باديس في توظيف الإسلام سياسيًا

دور الإسلاميين فى بعث الشخصية الجزائرية المقاومة

إن طول فترة المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسى وعدم خيوها ، رغم كل المحاولات جعلت السلطات الفرنسية تفكر فى الحل الأمثل لاحتواء الجزائر ، ووجدت أن الدين واللغة هما العقبان الرئيسيتان فى طريق مخططها ، ولذلك قررت استئناس الدين ومحاولة احتوائه ، وإفراغه من محتواه ، فعمدت إلى انتزاع الشعب الجزائرى من لغته وماضيه الحضارى ، وخداع شيوخ الطرق الصوفية التى كانت تسيطر على الشعب الجزائرى ، وسقوط الصوفية وتحالفها الآثم مع الاحتلال أدى إلى تقديم الفرصة الذهبية للشيخ عبد الحميد بن باديس ليضرب ضربته للحليفين معاً ، حيث قبل الشعب أفكاره الإصلاحية والسياسية ، وأصبح منذ ذلك الوقت هو الأب الروحى للفكر الإسلامى فى الجزائر المعاصرة ، وتعتمده الحركة الإسلامية الجزائرية الحالية كمرجع لا غنى عنه ، وذلك بعدما انكشف زيف الفكر الصوفى فى الجزائر ، رغم أن الحركة الصوفية كان لها دورها الجهادى المشرف ضد الاحتلال الفرنسى ، ولكن تراجعها وتحالفها مع المخادعين المحتلين أدى إلى سهولة ضربها وسحب الجماهير منها وإقناع الشعب بأفكار إسلامية جديدة تعود به إلى الإسلام النقى ، وهو ما كان يصعب على أى مصلح لو كانت الطرق الصوفية غير متحالفة مع الفرنسيين .

ومحاولة فرنسا المساس بالخرمات الجزائرية ، الدين واللغة جعل مجمل كفاح الشعب الجزائرى ، ونشاطه السياسى ، محدداً فى إطاره الإسلامى على مدى أكثر من ١٣٠ عاماً فكان الإسلام بكل رموزه ومؤسساته هو الذى يقود ويوجه ، وكانت حلقات الصمود مترابطة من ثورات وأحزاب وجمعيات إسلامية ، وحتى الأحزاب التى ظهرت وكانت لا تحمل توجهاً إسلامياً واضحاً كانت تؤكد انتماءها للإسلام ، ابتداء من جهاد الأمير عبد القادر (١٨٣٠ - ١٨٧١ م) ، وحتى جبهة التحرير الوطنى ، التى قادت حرب التحرير (١٩٥٤ - ١٩٦٢ م) ، لم تنكر هويتها الإسلامية وبعدها الجهادى والخطة الفرنسية كانت تعتمد فرنسة وتنصير الشعب الجزائرى ، فالأميرال كيدون ، الوالى

الفرنسي على الجزائر يخاطب الآباء البيض سنة ١٨٧١م قائلاً : « إنكم إذا سعيتم إلى استمالة الأهالي بواسطة التعليم وبما تسدون إليهم من إحسان تكونون قد قدمتم بعملكم هذا خدمة جليلة لفرنسا ، فليس في وسع فرنسا أن تنجب من الأطفال ما يكفيها لتعمير الجزائر ، ولذلك فمن الضروري الاستعاضة عن ذلك بفرنسة مليونين من أبناء البربر الخاضعين لسلطتنا ، واصلوا عملكم بحنكة ودراية وحيلة ، ولكم مني التأييد ، وفي إمكانكم أن تعتمدوا على كل الاعتماد »^(١) .

ويحكى الرحالة والمبشر الفرنسي « بوجولا » الذي عمل مع المارشال بيجو - حاكم الجزائر أنه في عام ١٨٤٤م يوم قابله في منزله بمدينة الجزائر قال له : « ماذا جئنا نعمل في أفريقيا ؟ فأجبتة لكي نواصل العمل الذي بدأه غودي فروا ، ولويس السابع ، وسان لويس » . وكان هذا المارشال يحرص على جمع الأطفال اليتامى ، أو الذين تمت إعادة أهاليهم ، ويقوم بتسليمهم إلى الآباء النصارى على أمل تحويلهم من الإسلام إلى النصرانية ، وكان يخاطب الأب بقوله ، حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين ، وإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار »^(٢) .

نعم لقد مارس الفرنسيون هذه العواطف الصليبية المتأججة عمليا منذ عام ١٨٣٠م حيث حدد وزير فرنسا هدف الحملة آنذاك بأنه يريد « الثأر من أعداء الدين والإنسانية » وأنه يعمل على « تمدين الجزائريين بجعلهم مسيحيين » وهذه الأهداف الفرنسية ظل يحتلون يطبقونها ، وبعد مرور قرن كامل على الاحتلال ، كان رئيس الجمهورية الفرنسي يردد نفس ما كان المارشال بيجو يردده ، ففي عام ١٩٣٠م خاطب الرئيس الفرنسي الشعب الجزائري بقوله إنه « جاء لتشييع جنازة الإسلام » .

وكتب أحد المفكرين الفرنسيين سنة ١٨٨٣م « نحن يصدد خلق أمة في الجزائر ، أمة لن تكون متمدنية بدونا ، وفي اليوم الذي احتلنا فيه هذا البلد وطردهنا منه الحكومة الوحشية التي كانت تضطهده تعهدنا بمصائر هذه الشعوب ، واتخذنا على أنفسنا نحوها عهد تمكينهم من الأنوار ، والمعارف ، والعقائد التي تفضلت الحكمة

(١) د . محمد عابد الجابري : سياسات التعليم في المغرب العربي . منتدى الفكر العربي القاهرة الطبعة الأولى ١٩٨٩م ص ١٠٧ .

(٢) محمد علي الناصري : عودة إلى دراسة فترة الاستعمار الفرنسي وآثارها . مجلة العالم ٢٩ فبراير ١٩٩٢م ص ٣٤ .

الإلهية بمنحنا إياها كل ذلك بفضل دولة متحضرة»^(١). وتمثلت خطة فرنسا للقضاء على الشخصية الجزائرية ومقوماتها في القضاء على اللغة العربية واعتبارها لغة أجنبية مع فرنسا جميع مراحل التعليم ، ومحاولة تصفية معاهد التعليم الحر واضطهاد معلميه ، ومن أمثلة ذلك أنه كان في مدينة قسنطينة ، قبل دخول الاحتلال لها سنة ١٨٣٧م ثمانون مدرسة ، وسبعة معاهد ، وثلاثمائة مدرسة ، وزاوية لم يبق منها بعد الاحتلال سوى ثلاثين مدرسة فقط وفي عتابة كان يوجد ٣٩ مدرسة و ٣٧ مسجداً وجامعاً وزاويتان قبل الاحتلال تقلصت إلى ثلاث مدارس و ١٥ مسجداً^(٢) .

كما اقتضت الخطة الفرنسية القضاء على الإسلام الذي يعتبر مقوماً أساسياً للشخصية الجزائرية ، وبذلك يمكن لفرنسا إحراز نصر ديني ، ولذلك حولت أعداداً كبيرة من المساجد الإسلامية الهامة إلى كنائس وباعت جزءاً لليهود نكاية في المسلمين وسيطرت على الأوقاف وكرد فعل على السياسة الاستعمارية الفرنسية قامت « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » الشهيرة التي تأسست عام ١٩٣١م بعد مرور قرن من الاحتلال ، ورفعت شعارها المجيد الذي كان خط الدفاع الأخير عن الجزائر وهو : الإسلام والعروبة والجزائر كما كان المنطلق لعملية التحرير الوطني بعد بناء الشخصية الجزائرية من جديد ، فهذه الجمعية هي التي وضعت البنية الأساسية لحرب التحرير .

وإذا كنا نقول إن الشيخ عبد الحميد بن باديس مؤسس تلك الجمعية هو الأب الروحي للحركة الإسلامية المعاصرة في الجزائر ، فإنه أيضاً هو الأب الحقيقي لحرب التحرير ، وإن كان قد استخدم في جهاده الأسلوب الديني السياسي ، وكان ذلك بالنظر إلى الظروف الدولية آنذاك ، وطبقاً لمعايير المصلحة الإسلامية عملاً جهادياً من الدرجة الأولى ولا يمكن أن نقيسه على الظروف الحالية فهو نجح في منع تذويب الشخصية الجزائرية وإن كان لم يطالب بالاستقلال عن فرنسا آنذاك لأن المعركة كانت على ساحة الإنسان نفسه كفرد وشعب وترك هذه الساحة للحرب على الأرض كانت ستكون خيانة عظمى للإسلام والجزائر ولذلك ركز جهوده على جبهة واحدة هي المحافظة على الشخصية الجزائرية من الانصهار ، وبالتالي ضياع كل شيء فإذا كانت الأرض قد ضاعت واحتلت

(١) د . نبيل أحمد بلاسي . معسكر سبق ذكره ص ٣٣ ، ص ٣٤ .

(٢) د . تركي واخ : التعليم القومي والشخصية الوطنية (١٩٣١ - ١٩٥٦م) ، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٧٥م ص ٩٣ - ٩٤ .

فإنه من الممكن استردادها ، ولن يتحقق ذلك إذا ضاع إنسان تلك الأرض ولذلك فإن المحافظة على ذلك الإنسان هو فى الحقيقة محافظة على الأرض وهذا ما حدث بالفعل .

فجمعية العلماء تحت قيادة ابن باديس خاضت ذروة معاركها سنة ١٩٣٣م عندما صدر قرار وزير الداخلية الفرنسى باعتبار العربية لغة أجنبية ونجحت إلى حد كبير الجمعية فى الحفاظ على عروبة الجزائر وإسلامها .

ولأهمية دور جمعية العلماء وابن باديس ، سنفرد بمبحثين لإيضاح دورها فى بلورة الشخصية الجزائرية فى مفهومها الإسلامى والقومى والوطنى ، تلك الشخصية التى قادت حرب التحرير واختارت الإسلام كمنهج حياة متكامل فى معركة الديمقراطية عام ١٩٩١م وهو الأمر الذى أدى إلى مصادرة خيارات الشعب الأمر الذى دفع الجزائر إلى مرحلة العنف .

ولفهم خيار الشعب الجزائرى لابد من دراسة دور جمعية العلماء ، وابن باديس فى بناء الشخصية الجزائرية .

المبحث الأول جمعية العلماء المسلمين

قبل الحديث عن هذه الجمعية ، يجب أن نلقى نظرة عجل على التيارات السياسية واتجاهاتها بعد الحرب العالمية الأولى ، ويمكن القول : إن الحزب الإصلاحي الذي أسسه الأمير خالد حفيد عبد القادر الجزائري ، هو بداية الحركة الوطنية ، حيث كان الأمير خالد قد كوّن وفدا من الضباط الجزائريين في الجيش الفرنسي طالبوا للرئيس الأمريكي ويلسون أثناء وجوده في فرساي بفرنسا تطبيق مبادئه المعروفة باسمه على الجزائر^(١) ، ورغم المواجهة العنيفة التي اتبعتها فرنسا إزاء الحركة الوطنية الجزائرية إلا أن الأحزاب السياسية الجزائرية توالى في الظهور خاصة في الثلاثينات ، وهي الفترة التي حددت التيارات السياسية واتجاهاتها الثلاث وهي :

١ - تيار يتنوع بين أقصى اليمين واليمين المعتدل وعبرت عنه الطرق الصوفية وكتلة المسلمين الجزائريين المنتخبين .

٢ - تيار الوسط وعبرت عنه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

٣ - تيار اليسار وعبرت عنه جمعية نجم شمال أفريقيا والحزب الشيوعي الجزائري والتيار الأول انخرقت فيه الطرق الصوفية عن الإسلام الصحيح ، مما أدى إلى إفساد الفطرة الإسلامية ، وتفكك روح التضامن الإسلامي وتطويع الجزائريين على الدل والخضوع للاحتلال ، ومن المعروف أن شيوخ الطرق الصوفية كانوا قد تحالفوا مع الممثلين الفرنسيين ودعوا أتباعهم بطاعة الاستعمار ، إلا أن جمعية العلماء نجحت في تنبيه الشعب إلى خطورة تلك الطرق وفضها مما جعل الشعب ينفذ عنها . أما كتلة المسلمين الجزائريين المعروفة باسم ودادية المسلمين المنتخبين والتي ضمت ذوى الثقافات الفرنسية وأصحاب الاتجاهات الاشتراكية ، وكذلك المسلمين إلا أن هؤلاء اتفقوا على هدف واحد هو معارضة الاستعمار ، وترغم هذه الودادية أو الاتحاد

(١) د . نبيل أحمد بلاسي . مصدر سبق ذكره ص ٤٧ .

الدكتور بن جلول ، وكانت مطالبة هؤلاء تتركز فى المساواة بالفرنسيين مع حرية العقيدة والتعليم للمسلمين ، ومساواة الدين الإسلامى بغيره من الديانات .

أما تيار الوسط الذى مثله العلماء فقد شكل قوة هائلة لنشر الوعى الوطنى ومعارضة سياسة الاستعمار الذى عمل على تحطيم القومية الجزائرية ونجح هذا التيار فى السيطرة على الجماهير الجزائرية .

نجم شمال أفريقيا

أما تيار اليسار مثلته جمعية « نجم شمال أفريقيا » التى استخدمت الصحافة كوسيلة اتصال بالجماهير ، وكانت تصدر صحيفة « الإقدام » التى أنشأها الأمير خالد سنة ١٩١٩م ولكن هذه المرة تحت عنوان « الأقدام الباريسى » وأضافت إليه عنوان فرعى بالمرية « من أجل الدفاع عن مسلمى شمال أفريقيا »^(١) .

وكان هذا الحزب يطالب باستقلال الجزائر وإنشاء جيش وطنى ، وتأميم أراضي الشركات الإقطاعية وإلغاء القوانين الاستثنائية بما فيه قانون الأهالى ، وإطلاق حرية الصحافة ، والحقوق السيامية والنقابية ، والانتخابية ، وحق الجزائريين فى التعليم ، وإنشاء المدارس العربية ، وتطبيق القوانين الفرنسية على الجزائريين ، وزيادة القروض الفلاحية .

وقامت السلطات الفرنسية بحله فى سنة ١٩٢٩م ، فلجأ إلى النشاط السرى ، معززا بذلك التنظيم الشيوعى الذى كانوا قد انضموا إليه فى البداية وفى نفس الوقت تأسس حزب جديد تحت اسم « النجم الثاقب » الذى أصدر صحيفة الأمة إلا أنه خل أيضا . وعاد هذا الحزب فى الظهور مرة ثانية عام ١٩٣٣م .

ويرى أحمد توفيق المدنى فى كتابه « حياة كفاح » أن حركة « نجم شمال أفريقيا » كانت حركة مطهرة فاضلة مخلصة أوحى بها الضمير الحر لرجال من المغرب العربى كان من بينهم الأمير خالد بن الهاشمى حفيد الأمير عبد القادر ، وعلى الحماوى ، ومصالى الحاج ، وقد ظهرت حركتهم الأولى بين العمال المسلمين ، وتم تأسيس الحركة فى ١٩٢٦م^(٢) .

(١) أبو القاسم سعد الله . معاصر سبق ذكره ص ٤٢٦ .

(٢) أحمد توفيق المدنى : حياة كفاح فى الجزائر ١٩٢٥ - ١٩٥٤م . القسم الثانى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . بدون تاريخ ص ١٣٠ .

ويقول أحمد الصافي وصالح فرحات لأحمد توفيق المدني : إن هذه الحركة شيوعية بحتة ، وإن عبد القادر بن الحاج ومصالي الحاج من رجال الحزب الشيوعي المعدودين ولا يزالان يعملان سراً وباتفاق معه .

ويرد المدني بأن الحركة الوطنية القومية لا بد لها في مبدأ أمرها ، أن تستعين بحركة كبرى تحريرية ، والشيوعية حركة تحريرية لا محالة ، وانتهى الحوار إلى عدم اقتناع الإسلاميين في الجزائر بدخول هذه الحركة التي نسج خيوطها لو سيان سان إلى جمعية العلماء^(١) .

أنعادت مصالي سنة ١٩٣٤م تكوين النجمة باسم جديد هو الاتحاد الوطني لمسلمي شمال أفريقيا ، واعتبرت فرنسا ذلك الحزب غير مشروع ، وفي جنيف التقى الحاج بالأمير شكيب أرسلان ، الذي تمكن من أقناعه بالتحول إلى مظهره العربي الإسلامي وزيادة الاتصال بالحركة الإصلاحية في الجزائر ، وعندما تقرر حل الجمعية في ١٩٣٧م أعلنت عن نفسها تحت اسم حزب « الشعب » الجزائري ، وهو حزب سياسي ذو مضمون إسلامي . وتشير مغنية الأزرق إلى أن مصالي الحاج كان عضواً سابقاً في الحزب الشيوعي الفرنسي إلا أنه تأثر في وقت لاحق بحركة « الإحياء الإسلامي »^(٢) .

أما الاتجاه الثاني داخل اليسار فكان الحزب الشيوعي الجزائري الذي استقل عن الحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٣٥م ، وبدأ تحت قيادة جان شانتورن وأسندت المناصب القيادية في الحزب إلى الجزائريين أمثال « أوزجان عمار » ، ولكنه فشل على الصعيد الجزائري .

وهكذا نجد أن قوى اليمين المتطرف (الطرق الصوفية) قد اندثرت ، ومالت قوى اليمين المعتدل والوسط صوب اليسار خاصة بعد الحرب العالمية الثانية إلا أن الوسط المتمثل في جمعية العلماء قد انفرد ببرنامجه الخاص بدعم الشخصية الجزائرية العربية المسلمة .

جمعية الجزائر الفتاة

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى جمعية «الجزائر الفتاة» والتي كانت ترسم خطى حركة « تركيا الفتاة» ، وكانت الحركة الجزائرية شغوفة بتطعيم الإسلام بالثقافة الفرنسية ، وإن

(١) المصدر السابق ص ١٣٣ .

(٢) مغنية الأزرق: نشوء الطبقات في الجزائر. ترجمة سمير كرم . مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨٠م

هدفها كان اكتساب حق المواطنة ، أى العضوية الكاملة فى المجتمع الفرنسى شأن المواطنين الفرنسيين فى الجزائر ، وإلغاء المحاكم الخاصة ، وقانون الأهالى ، وإلغاء الضرائب « المسماة ضرائب العرب ، والمشاركة السياسية فى المؤسسات المحلية ، والتمثيل فى البرلمان الفرنسى ، وطالبت حركة الجزائر الفتاة فى مقابل تجنيد الجزائريين فى الجيش بالمواطنة الفرنسية ، التى كان مشرعو الإمبراطورية الثانية يعتقدون أنها لا تتواءم مع الحالة المدنية الإسلامية ، والحقيقة أن ما نص عليه مرسوم مجلس الشيوخ عام ١٨٦٥م من أن « المواطن المسلم هو فرنسى ، ومع ذلك فسيتم تدبير شئونه وفقاً للقانون الإسلامى ، لم يطبق . إذا كان الاعتقاد أن مبادئ القانون الإسلامى تتناقض مع قوانيننا وأعرافنا المتعلقة بالزواج والطلاق والحالة المدنية للأبناء » ، ولذا كان يتعين على الجزائريين - لكى يصبحوا مواطنين فرنسيين - أن يتخلوا عن وضعيتهم الدينية ، على الرغم من أنه تم منح المواطنة الكاملة لليهود الجزائريين (الذين كان الفرنسيون يعدونهم من « الأهالى أيضاً فى البداية » بواسطة مرسوم كريميو للعام ١٨٧٠م وكذلك للأجانب الذين يولدون فى الجزائر بواسطة قانون ١٨٨٩م) ^(١).

وهكذا نرى أنه حتى الذين كانوا يطالبون بالمواطنة الفرنسية الكاملة كانوا لا ينسون أبداً دينهم الإسلامى ، وكان موقف السلطة الفرنسية من تلك الحركة يوجه التحذير القائل : «بأن إعطاء الأهالى الحقوق السياسية من شأنه أن يمكن رجال الجزائر الفتاة من أن يبدءوا حركة وطنية موجهة ضد الاحتلال الفرنسى » .

جماعة الحق :

وكانت هناك معارضة إسلامية لجماعة « الجزائر الفتاة » قادتها جماعة تدعى جماعة « الحق » وكانت تستهدف الإحياء الإسلامى أكثر من الحصول على الحقوق المتساوية مع الفرنسيين ، وتألقت هذه الجماعة من صغار ملاك الأراضى ، وأصحاب المحلات والمعلمين ، وكانوا يطالبون بإصلاحات اجتماعية وإدارية ، خاصة تحسين حالة الفلاحين الاقتصادية ، وبضمانات ضد مصادرة الأرض ، وعلى النقيض من « الجزائر الفتاة » كانت جماعة « الحق » تعارض بشدة كلا من الخدمة الإجبارية ، ومد نطاق المواطنة الفرنسية ، لتشمل الجزائريين وهكذا فإنه فى حين كان أعضاء «الجزائر الفتاة» هم الناطقون باسم مايسمى «النخبة الجديدة» ، كان أعضاء جماعة «الحق» يدافعون عن حقوق الفلاحين ومع

(١) المصدر السابق ص ٧٠ .

ذلك فإنها اجتذبت أولئك الأعضاء في جماعة «الجزائر الفتاة» الذين كانوا يناهضون التخلي عن وضعيتهم الإسلامية للحصول على المواطنة الفرنسية.^(١)

نادى الترقى

وفي عام ١٩٢٦م اجتمع ٣٢ رجلاً من أعيان الجزائر ودعا أحمد توفيق المدني بإنشاء نادى الترقى ، وتم بناء نادى يسع ٧٠٠ شخص وكتب المدني الاسم بالعربية على اليمين ، وبالفرنسية على اليسار ، يفصل بينها شعار مدينة الجزائر الرسمي وتم وضع رسم مصحف مفتوح في مكان الصليب الرسمي ، وكان يوم الثالث من شهر يوليو ١٩٢٧م يوماً مشهوداً فيه تم افتتاح النادى الذى كان يعبر عن اتحاد بين أصحاب النيات الحسنة بغض النظر عن المراكز الاجتماعية ، اتحاد لكل عناصر المجتمع الجزائرى ، كان النادى ميلاداً جديداً للقومية الجزائرية بعد أن قضى عليها الاستعمار أو كاد .

وكان من نتيجة أعمال النادى علاوة على المحاضرات الأسبوعية : تأسيس جمعية الفلاح ، وجمع شمل وحدة النواب الجزائريين ، ومؤتمر طلاب شمال أفريقيا ، وتأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية الكبرى ، مقاومة سياسة التجنس والاندماج ، مساعدة الكفاح الفلسطيني ، مقاومة التبشير المسيحي ، ومحاولة تكوين بنك إسلامي . وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين^(٢) .

وإن كانت معظم المصادر تؤكد أن نادى الترقى كان مركزاً فقط لاجتماعات جمعية العلماء في مرحلتها الأولى ولم يكن للنادى دور مهم في تأسيس الجمعية وهكذا نرى أن البيئة السياسية والاجتماعية في الجزائر كانت مؤهلة لاحتضان بذرة جمعية العلماء المسلمين بعد أن هيأت التيارات السابقة التربة النفسية لذلك ، وهكذا لم تجد الجمعية صعوبة في النمو والاختضار وطرح الثمار .

ظروف إعلان الجمعية :

ويمكننا القول : إن أساليب فرنسا الاستفزازية ضد الإسلام كانت الدافع الرئيسى لإعلان جمعية العلماء المسلمين ، من أهم المصادر التى تناولت تاريخ وفكر هذه الجمعية دراسة مازن صلاح حامد مطبقانى المعنونة بـ : «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في

(١) المصدر السابق ص ٧١ .

(٢) أحمد توفيق المدني . مصدر سبق ذكره ص ١١٢ ، ص ١١٤ .

الحركة الوطنية الجزائرية» وهو ما ستعتمده بشكل رئيسي في هذا المبحث مع غيره من المصادر المساعدة.

واعتمد الباحث على مصادر متعددة حول تأسيس الجمعية وانتهى إلى أن مصادر الجمعية تشير إلى أن التفكير في العمل الإصلاحي المنظم يعود إلى بداية القرن العشرين وتحديدًا عام (١٣٣١هـ - ١٩١٣م) ، حينما التقى عبد الحميد بن باديس بالشيخ البشير الإبراهيمي في المدينة المنورة ومكثا ثلاثة أشهر يلتقيان كل ليلة بعد صلاة العشاء حتى الفجر يدرسان ما يمكن عمله إذا ما عادا إلى الجزائر للقيام بحركة إصلاحية ، وبعد انتهاء الحرب الأولى وعودتهما إلى الجزائر استمر الاتصال بينهما من أجل تحقيق هذا الأمل .

وكان الإبراهيمي قد عرض على ابن باديس في (١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م) تأسيس جمعية الإخاء العلمي لتجمع علماء قسنطينة ولكن هذا المشروع لم يتم ، وكانت الخطوة التالية تأسيس صحيفة « المتقد » لنشر الدعوة الإصلاحية ، ودعا ابن باديس في تلك الصحيفة إلى اتحاد للعلماء وتجمعهم والاتفاق على خطة عمل لإصلاح الأوضاع الدينية والاجتماعية والتعليمية والسياسية : « لو اتحد العلماء على حقهم كما اتحد غيرهم على باطلهم لسعدت الأمة ، ونجت من بلاء كثير » ، ورد ذلك في العدد الرابع عشر من المتقد ، وفي العدد الثالث من الشهاب ٩ جمادى أول ١٣٤٤هـ / ٢٦ نوفمبر ١٩٢٥م ، قال : « أيها السادة العلماء المصلحون المنتشرون في القطر الجزائري إن التعارف أساس التآلف ، والاتحاد شرط النجاح فهلموا إلى التعارف والاتحاد بتأسيس حزب ديني عض » ، وفي العدد التاسع من الشهاب ٢١ جمادى الثانية ١٣٤٤هـ / ٢٧ يناير ١٩٢٦م يكتب المولود بن الحافظي مرحبًا بهذا الاقتراح لأن الحالة الدينية أصبحت سيئة جدًا لكثرة البدع والخرافات ، ثم تتوالى المقالات المؤيدة لإنشاء تجمع ديني فيكتب أحدهم « يجب تأسيس حزب إصلاحي ديني يكون مركزه العاصمة وله فرعان : أحدهما بقسنطينة ، والآخر بوهران »^(١) . كما دعا الشيخ ابن باديس في عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي لدوة يدرسون فيها أوضاع الجزائر ، وما يمكن عمله

(١) مازن صلاح حامد مطبقي : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية ١٣٤٩-١٣٥٨هـ / ١٩٣١-١٩٣٩م . دار القلم . دمشق . دارالعلوم بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨٨م ص ٦٩ - ٧١ .

لإصلاح هذه الأوضاع ، وكان ممن لبى الدعوة البشير الإبراهيمي ، ومبارك الميلي ،
والعربي بن بلقاسم التيسي ، ومحمد السعيد الزهراوي ، ومحمد خير الدين ، واتفقوا على
خطة عمل تقضى بإنشاء المدارس الحرة للتعليم العربي والتربية الإسلامية ، والعمل على
نشر الدعوة الإصلاحية في المساجد الحرة ، واستخدام الصحافة والنوادي ، وإنشاء فرق
الكشافة الإسلامية للشباب هادفين من ذلك كله : « إذكاء روح النضال في أوساط
الشعب لتحرير البلاد من العبودية والخنوع للأجنبي » كما يقول محمد الطاهر فضلاء في
كتابة التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح ^(١) .

وهناك روايات شتى حول تاريخ تأسيس الجمعية ، واختلفت الآراء حول ذلك
التاريخ ، وإن كان قد حصر في الفترة من ١٩٣٠م إلى ١٩٣٥م إلا أن مازن صلاح
حامد مطبقاتي ، يؤكد بعد تفنيد الروايات بأنها تأسست عام ١٩٣١م وأنه ليس
لأحمد توفيق المدني - الذي جعل لنفسه الدور الرئيسي في التفكير في إنشاء الجمعية
في كتابة حياة كفاح في الجزائر - دور في التفكير في إنشاء الجمعية وإن التفكير
في إنشاء الجمعية سبق وصول المدني إلى الجزائر بسنوات طويلة وإن الذي كتب
القانون الأساسي للجمعية هو البشير الإبراهيمي وليس المدني كما ادعى .

ويرجع الشيخ البشير الإبراهيمي ظهور حركة الإصلاح الديني وازدهارها في الجزائر
إلى دعوة الشيخ محمد عبده إلى الإصلاح بالإضافة إلى أن كتب علماء السلف مثل ابن
تيمية ، وابن القيم الجوزية ، والشوكاني كان لها أثرها في تهيئة البلاد لقبول الدعوة
الإصلاحية ، بالإضافة إلى الثورة التعليمية التي أحدثتها الشيخ عبد الحميد بن باديس
بدروسه الحية والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه . بالإضافة إلى عودة مجموعة
من الجزائريين الذين كانوا يتلقون العلم في الحجاز ، وتونس ، ومصر ، وغيرها من البلاد
بعد الحرب العالمية الأولى وكذلك ظهور حقيقة الطريقة ويضيف صلاح حامد مطبقاتي
إلى ما ذكره الإبراهيمي عوامل أخرى مثل ظهور حركة فكرية في بداية القرن
العشرين على أيدي بعض العلماء أمثال : عبد الحليم بن سماية ، والحفناوي ، والونيسي ،

(١) محمد الطاهر فضلاء ، التحريف والتزييف في كتاب حياة الكفاح ، الطبعة الأولى قسنطينة : دار البعث

وابن الموهوب ، وهذه وإن كانت لا ترقى إلى أهمية حركة الشيخ ابن باديس ، لكنها لاشك هيأت الشعب الجزائري إلى قبول الإصلاح وتأييده^(١) .

كما ذكر بعض المؤرخين عوامل أخرى مثل الصحافة الإصلاحية : « المنتقد » ، « الشهاب » ، « الإصلاح » ، « الفاروق » ، « ذو الفقار » ، « والإقدام » ، « الجزائر » . والأربع الأخيرة كانت صحفًا سياسية إخبارية ، وبجهود فردية أما الثلاث الأولى فكان تلاميذ وزملاء ابن باديس وراءها ، بل شارك ابن باديس عبد الحفيظ الهاشمي في تأسيس جريدة « النجاح » التي ظلت موالية للإصلاح رغم خروج ابن باديس منها ، إلا أنها انحازت للإدارة الفرنسية كليًا ، وعادت جمعية العلماء بعد تأسيس جمعية علماء السنة عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٢م) التي أسسها الفرنسيون لمواجهة العلماء . بالإضافة إلى صحف : « الجزائر » لمؤسسها محمد السعيد الزاهري في عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) وكانت تحمل شعار « الجزائر للجزائريين » . وأيضًا صحيفة « صدى الصحراء » في بسكرة ١٣٤٤ - ١٣٤٥هـ (١٩٢٥ - ١٩٢٦م) لصاحبها أحمد بن العابد العقبي ، وكذلك « البرق » وصدرت في ٣ رمضان ١٣٤٥هـ (٢٧ مارس ١٩٢٧م) ، وكانت شديدة اللهجة ضد الطرقية ، وكانت تضم عددًا كبيرًا من الكتاب الصالحين أمثال العمودي ، والشيخ مبارك الميلي ، والعقبي إلا أنها عطلت في ١٣٤٦هـ (سبتمبر ١٩٢٧م) وأيضًا صحيفة « الإصلاح » التي أصدرها الشيخ الطيب العقبي^(٢) .

وبالطبع كان لهذه الصحافة الإصلاحية دور هام في تهيئة الأذهان والنفوس لاستقبال التغيير ، وإعادة بناء الشخصية الجزائرية ، بالإضافة إلى التقاء رجال الإصلاح في مكاتب تلك الصحف ، وتبادل الرأي والتعود على العمل المشترك في مجال محاربة الفساد الاجتماعي والسياسي والديني .

وجاء عام ١٩٣٠م الموافق ١٣٤٩هـ ليخرج الحمية الإسلامية ويعيد صياغتها من جديد ، حيث احتفل الفرنسيون فيه على نطاق واسع بالعيد المئوي لاحتلالهم الجزائر ، وروى عن الكاردينال فيجيري قوله : « جعل الجزائر مهدًا لدولة مسيحية يضيء أرجاءها نورة مدينة منيع وجهها الإنجيل » وقال بمناسبة الاحتفال المئوي لاحتلال

(١) مازن صلاح حامد مطبقاتي : مصدر سبق ذكره ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٢ ، ص ٦٣ ، ص ٦٤ .

الجزائر : « إن عهد الحلال فى الجزائر قد غير وإن عهد الصليب قد بدأ ويستمر إلى الأبد » .

كل هذا كان دافع ابن باديس للتحرك السريع إلى العمل الجماعى بدلاً من العمل الفردى ، والتفكير جدياً لحشد الطاقات حتى يغدو الإبتلاع مستحيلاً أو عسيراً على الأقل ، وبدأ يردد الشعار الذى جاء فى كتاب أحمد توفيق المدني « الجزائر » وهو : « الإسلام ديننا ، والعروبة لغتنا ، والجزائر وطننا »^(١) .

الاصول الفكرية للجمعية :

وتأسست الجمعية تبعاً لنظام الجمعيات المبنية أحكامه على أساس القانون الفرنسى والذى كان لا يسوغ لأى جمعية الخوض فى الأمور السياسية ولذلك كانت مبادئ الجمعية وقانونها الأساسى ، تراعى القانون ولكن الدعوة إلى الإسلام الصحيح تحمل كل ما حاول القانون الفرنسى أن يمنعه ، فالإسلام منهج حياة شامل وليس طقوساً تعبدية . ويشير محمود قاسم فى كتابه الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية إلى الأصول الفكرية لجمعية العلماء الجزائريين ، بأنها تدعو إلى الرحمة بالضعيف وإرشاد الضال وإعانة المضطر ، وإغاثة الملهوف و نصرة المظلوم وأن القرآن هو كتاب الإسلام ، والسنة القولية والفعلية الصحيحة تفسير وبيان له ، وسلوك السلف والتابعين وأتباعهم تطبيق لهدى الإسلام . وفهمهم أصدق الفهم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة .. والتوحيد أساس الدين^(٢) .

ولخص الشيخ عبد الحميد بن باديس مبادئ الجمعية فى المعانى الآتية : « العروبة ، والإسلام ، والعلم ، والفضيلة » وقال : إن هذه المبادئ هى أركان جمعية العلماء التى تحفظ على الجزائريين جنسيتهم وقوميتهم ، كما روجت جمعية العلماء لمبادئها الإصلاحية من خلال الدعوة والكتب ، ومن أبرزها القانون الأساسى لجمعية العلماء الذى أوضح أن هذه الجمعية اتخذت من نادى الترقى مقراً لها ، وأنه لا يجوز لها الخوض فى المسائل

(١) د . محمد فتحى عثمان : عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية فى الجزائر المعاصرة . دار القلم - الكويت . الطبعة الأولى ١٩٨٧م ص ٦٩ .

(٢) محمود قاسم : الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرى ، دار المعارف ١٩٦٨م ص ٢٣ - ص ٢٦ .

السياسية لأنها مؤسسة طبقا لقانون الجمعيات المبنية بالقانون الفرنسى المؤرخ بغيره يوليو لسنة ١٩٠١ م .

كما أوضح القسم الثانى غاية إنشاء هذه الجمعية التى تكمن فى محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة^(١) .

وفى خطاب ابن باديس فى الاجتماع العام لجمعية العلماء فى آخر رجب سنة ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) بعد سبع سنوات من تأسيسها قال : « ... فسلام عليكم يا أعضاء جمعية المسلمين الجزائريين أجمعين ، وسلام على متهميكم فى المهتمن ، وسلام على منكوبيكم فى المنكوبين ، سجون واتهامات ونكبات ، ثلاث لا تبنى الحياة إلا عليها ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحققة إلا على أسسها ، فاليوم وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث أثبتت الجمعية فى تاريخ الإسلام وجودها ، ونقشت فى قلوب أبناء المستقبل اسمها ... إن جمعيتكم أمانة على حفظ الإسلام ولغة الإسلام فى هذه الديار ، فإن قانونها الأساسى ينص على أنها جمعية تهذيبية إرشادية تحارب الآفات الاجتماعية وكل ما يحرمه صريح الشرع ، وتندرع لغايتها بكل ما تراه صالحا نافعا غير مخالف للقوانين المعمول بها ، وأى وسيلة أقرب إلى تهذيب المسلمين ، وأى دواء أنجع فى علاجهم من دينهم الكريم ؟ وبأى شيء يفهمون هذا الدين ، ويصلون منه إلى ما فيه من تربية وتهذيب إلا بالعربية لغة القرآن العظيم ؟ وتعلم الإسلام ولغة الإسلام مباح فى أصل القوانين ، ولقد صدمت هذه القوانين الأصلية بمعاملات استثنائية رامية فى فهم جميع المسلمين إلى مقاومة الإسلام ولغة الإسلام ، وذلك هو المشاهد من آثارها فى التغليب والتعطيل ! ، لقد قامت الجمعية بالدفاع إزاء هذا كله ، وقامت معها جمع الهيئات أو جلها ، حتى تبين أن المسألة مسألة أمة لا مسألة الجمعية ، وأن المسلمين لا يسكتون عن تعلم دينهم ولغة دينهم بحال ، وقد جيش على الإسلام من ناحية أخرى ، فوضعت الذاتية الإسلامية فى المساومة ، فرفضت الجمعية صوتها بالتحذير والتبيين ، ووجدت من ممثلى الأمة آذانا صاغية ففشلت المساومة وهكذا لا تفتأ جمعيتكم إن شاء الله دائبة فى سبيل الإسلام ، والعربية لغة الإسلام فى دائرة القانون العام ، ولو لحقها فى ذلك كل ظلم

(١) د . نيل أحمد بلاسى . معاصر سبق ذكره ص ٦٢ - ص ٦٣ .

وعدوان ، ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ ؛ ولنبلونكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين
ونبلو أخباركم﴾ (سورة محمد ٣٠ ، ٣١)^(١) .

وهكذا يتضح من خطاب ابن باديس أن الهدف الأساسي هو الحفاظ على الدين
الإسلامي ولغته ، وعدم المساومة على الذات الإسلامية ، مهما تكن العواقب وأصول
دعوة العلماء انبثقت عن ثلاثة اتجاهات هي :

١ - الاتجاه الديني : ونادى بالإسلام الذي وضعه الله عز وجل لهداية عباده ،
وقد اختار الله عز وجل هذا الدين لتسعد به البشرية لأنه يدعو إلى الأخوة بين
البشر ، والمساواة بين جميع الأجناس ويعدل بينهم ، ويحرم جميع ألوان الظلم ،
ويدعو إلى التسامح مع الأديان الأخرى ، والتصدق بأموال الأغنياء إلى الفقراء ،
ورحمة الضعيف ، وتعليم الجاهل ، ويرشد الضال ، ويغيث الملهوف ، وينصر
المظلوم ، ويحرم الاستعباد والظلم بجميع أشكاله ، كما أنه يدعو إلى الشورى^(٢) .

٢ - الاتجاه الاجتماعي : اتخذ العلماء من القرآن والسنة ومسلك الصحابة
والتابعين ، وأتباع التابعين مثلاً أعلى للتعامل في الحياة ، واعتبر العلماء الطرق الصوفية
بدعة لم يعرفها السلف الصالح واعتبروها من أنواع الشرور في الدنيا لأن فيها
تجميد للعقول ، وإماتة للهمم ، وقتل للشعور ، كما دعا العلماء إلى الرحمة بالجاهلين
والمغرورين ومحاربة المعاندين المستغلين^(٣) .

٣ - الاتجاه السياسي : برغم عدم قيام العلماء بالخوض في السياسة منذ
البداية فإنهم دعوا إلى وحدة الصف ، وهاجموا الطرق الصوفية . ومحاولة فرنسا
فرض قانون التجنيد الإجباري ، ودعوا إلى تمثيل الجزائريين داخل المجالس الفرنسية
بما في ذلك المجلس الوطني الفرنسي مما أدى إلى اصطدامهم بالإدارة الفرنسية^(٤) .
وعلى الرغم من أن الفصل الثالث من القسم الأول من القانون الأساسي للجمعية
ينص على « لا يسوغ لهذه الجمعية بحال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل
السياسية » . إلا أن الكتاب الغربيين أدركوا حقيقة الإسلام وفهم أهداف الجمعية فوجد

(١) د . محمد فتحي عثمان . مصدر سبق ذكره ص ٧١ ، ص ٧٢ .

(٢) د . تركي راج . مصدر سبق ذكره ص ٢٠٢ .

(٣) د . نبيل أحمد بلاس . مصدر سبق ذكره ص ٦٣ ، ص ٦٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٦٤ .

« ليون كان براون » فى مقالته حول الحركة الإصلاحية الإسلامية فى شمال أفريقيا يقول : « وبالرغم من التصريحات المختلفة التى تنفى وجود أهداف سياسية توحى بأن اهتمام المصلحين بالأهداف القومية كان ضعيفا ، ولكن يجب رفض هذه الفكرة لا لأنها غير صحيحة ، بل لعدم فهم الدوافع النفسية وراء الإصلاح الإسلامى »^(١) .

كما فهمت السلطات الفرنسية حقيقة أهداف الجمعية وخطورتها ، ففى وثيقة بعنوان « الجزائر فى نصف قرن » صدرت عام ١٣٧٣هـ (يناير ١٩٥٤م) عن الإدارة العامة للشئون السياسية والخدمات العامة ، التابعة للحاكم العام للجزائر نجد تقريراً لمحافظ الشرطة « بُرح بو عريج » يقول : « إن ازدياد نفوذ العلماء هو الخطر الحقيقى على السيادة الفرنسية لأن هدفهم هو تكوين الإنسان المسلم .. » .

ويقول تقرير لمصرف « فنج مزالة » .. ، وعلى الرغم من أنها (الجمعية) تدعى أنها لا سياسية ، فإنها نواة للأحزاب الوطنية ، وقاعدة ينمو فوقها الشعور الوطنى ، ويؤكد تقرير سرى فرنسى آخر ، إن أول عمل فى برنامج الجمعية الإصلاحي ، التصدى للقوى العاملة مع الاستعمار والمؤيدة له ، ويعزو التقرير إلى الشيخ العقبى قوله : « يوم تتخلص أفكاركم من الطرقية سيكون من السهل عليكم المطالبة بالاستقلال » . ويؤكد هذا تقريراً أعده مركز الإعلام بولاية الجزائر إذ يقول : « إن الهدف الرئيسى الذى عمل له العلماء هو إحياء الدين الإسلامى فى صورته النقية ، والمحافظة على عروبتهم وشخصيتهم الإسلامية ، ولأجل ذلك فقد وقفوا فى وجه الطرقية والمتفرنجين الذين تمسكوا بالثقافة الفرنسية ، ويشير مقال فى إحدى المجلات الفرنسية المتخصصة أن التوجه السياسى للجمعية كان دائما مستترا خلف التفكير الدينى المرن ، فالعلماء لم يناقشوا الأمور السياسية علناً ، كما أنهم لم يرشحوا أى شخص فى الانتخابات - على الأقل بصورة رسمية - لكن مساعدتهم السرية كانت حاسمة فى حالات كثيرة ، وهذا الابتعاد الاختيارى عن السياسة لم يقلل من حماس وإرادة العلماء وبالتالي نجد صدق ذلك فى صحافتهم التى سارت على نفس الخطة »^(٢) .

ويؤكد الدكتور صلاح العقاد فى كتابه « الجزائر المعاصرة » إن الجمعية لم تتخل عن دورها السياسى ، رغم أنها تأسست لأغراض دينية محضة^(٣) .

(١) مازن صلاح حامد مطبقاتى . مصدر سبق ذكره ص ٨١ .

(٢) المصدر السابق ص ٨١ ، ص ٨٣ ، ص ٨٤ .

(٣) د . صلاح العقاد . الجزائر المعاصرة ، معهد الدراسات العربية ١٩٦٣/١٩٦٤م القاهرة ص ٢٨ .

بينما يشير تركي رايح إلى بعد نظر الجمعية وعمق تفكيرها لأنها لم تسلك طريق التصدى المباشر للقوى الاستعمارية في مجال التحرك السياسي ، لأن الجزائر كانت خاضعة لأحكام القانون الفرنسي ، فكيف كانت ستطالب بالاستقلال وهي لم تحقق شخصيتها العربية والإسلامية بعد^(١) .

وإذا كان القانون الأساسي للجمعية لم ينص صراحة على المحافظة على الشخصية الجزائرية ، فإن مقالات أعضاء الجمعية كانت تدعو لذلك ، بل إن شعار المدارس التي أسستها الجمعية كان : « الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني » .

وقد كانت الدعوة إلى رفض الاندماج تدرج في نظر فرنسا تحت النشاط السياسي ، ومع ذلك كان الإفتاء بأن المتجنس مرتد لا يحق له أن يدفن في مقابر المسلمين وينطبق ذلك على كل من استأنف دعواه أمام قاض مدني بعد أن حكم عليه قاض شرعي^(٢) .

ويشير على مراد في دراسته عن الإصلاحيين المسلمين في الجزائر في سنة ١٩٢٥ - ١٩٤٠م إلى أنه في الوقت الذي كان التأكيد فيه على القومية الجزائرية يعد مظهرًا من مظاهر الشعور المعادي لفرنسا ، وأن كل من يدعو إلى القومية يهتم بمعاداة فرنسا ، ومحاولة المساس بالسيادة الفرنسية ، كان الإصلاحيون لا يخافون من الدعوة إلى القومية أي جنسيتهم الأصلية ، وبالتالي معاداة سياسة الاندماج وهكذا فمنذ عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) فإن ابن باديس وزملاءه قد جعلوا دعايتهم تحت شعار الإسلام ، الذي كان يعبر عن الروح الوطنية ويدعو إلى الحفاظ على الخصائص القومية ، وهذان المبدآن يمثلان جوهر العقيدة السياسية للحركة الإصلاحية .

وبذلك يتضح أنه برغم خلو القانون الأساسي من نص الاشتغال بالسياسة فإن ذلك لم يكن ليحول بينها وبين ذلك ، تمشياً مع المفهوم الصحيح للدين الإسلامي الذي لا يفصل بين الدين والسياسة ، وكذلك فإن القانون الأساسي كان ملزماً بالقانون الفرنسي الخاص بالجمعيات الدينية الذي يمنع التدخل في السياسة ، ولكن الجمعية أرادت أن توضح دعوتها ، فقام ابن باديس بنشر أصول الدعوة إثر صلاة الجمعة يوم ٤ ربيع الأول ١٣٥٦هـ مايو ١٩٣٧ ونشر في كتيب مع القانون الأساسي مما يؤكد أنه امتداد له

(١) مازن صلاح حامد مطبقي ، مصدر سبق ذكره ص ٩٨ .

(٢) للعنبر السابق ص ٨٦ .

وشرح وتفصيل للقانون الأساسى ، ويشير كاتب فرنسى إلى أن أصول دعوة الجمعية كانت مبثوثة فى صحافة الجمعية منذ تأسيسها ، وكل ما حدث أنها جمعت فى كتيب واحد^(١) .

أما أصول دعوة الجمعية ، فتعطى صورة عن برنامج الجمعية الدينى والسياسى والاقتصادى ، ففى الفصل الثانى جاء أن الإسلام دين البشرية الذى لا تسعد إلا به وذلك لأنه يحرم الظلم ويفرض العدل بين جميع الناس ، ويشترك الفقراء مع الأغنياء فى الأموال مثل القراض والمزارعة والمقارسة ، مما يظهر التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضى والأموال ، كما أنه يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه ، ويجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس .

بتحليل ذلك يتضح أن الجمعية رسمت برنامجاً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً يفهم المؤرخين الذين يدعون أن أهداف الجمعية كانت المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية ، دون أن يكون لها برنامج اجتماعى أسوة بالأحزاب السياسية .

ويؤكد الباحث الكندى « أندرى ديرلك » بأن ابن باديس وقف بصلاية ضد الأفكار الاشتراكية التى وجدت جواً مشجعاً فى الجزائر ، وذلك بالدعوة إلى المبادئ الاجتماعية الإسلامية التى أوضحها القرآن بصراحة حين جعل الناس سواسية وأن الإسلام عندما يطبق بشكل صحيح يقضى على الفروق الطبقية ، ويوجد مجتمعاً متجانساً لا أثر للصراعات الطبيعية فيه^(٢) .

وهكذا نرى أن جمعية العلماء مارست دوراً هاماً فى تأكيد انتماء الجزائر الإسلامى وخاضت المعارك على كل الجبهات ضد الاحتلال الفرنسى رافعة شعار ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغِيرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغِيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ . وكان هذا هو الطريق الصحيح على طريق التحرير وهناك تساؤل يثار حول منح السلطات الفرنسية الترخيص الرسمى لجمعية العلماء بعد أيام من تقديم طلب الترخيص حيث حصلت الجمعية على الترخيص فى ٤ صفر ١٣٤٩هـ الموافق ٢٢ مايو ١٩٣١م ، ونشر فى الجريدة الرسمية بتاريخ ١٣ محرم ١٣٤٩هـ / ٣١ مايو ١٩٣١م يشير أحد المؤرخين إلى ثلاثة أسباب لذلك ، أولها أن الاحتفال المثنوى

(١) المصدر السابق ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٩ .

وما صاحبه من استفزاز لعواطف الشعب الجزائري جعل السلطات توافق على إنشاء الجمعية لتهدئة رد فعل الشعب الجزائري ، وثانيها هو تسامح مدير الشؤون الأهلية « مسيو ميرانت » أما السبب الثالث فيبدو في انضمام جماعة من غير الإصلاحيين من رؤساء الزوايا والموظفين الدينيين ، قد يؤدي إلى السيطرة على الجمعية ، وبالتالي احتواء الحركة الإصلاحية . وهناك سبب آخر هو اعتقاد فرنسا أن العلماء لا يشكلون خطراً عليها ، ويؤكد هذا مؤرخ أمريكي درس الوثائق الفرنسية الموجودة في الأرشيف الفرنسي حيث ذكر أن الأجزاء المبعثرة من تقارير إدارة شؤون الأهالي للسنوات من ١٣٤٣ - ١٣٤٩ هـ (١٩٢٤ - ١٩٣٠ م) ، لم ترأى خطورة في حركة الإصلاح ، فقد كانت دوائر الشرطة خلال عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) تهتم بالنشاط المتزايد للشيوعية أكثر من اهتمامها بالعلماء ولكن الاهتمام بالشيوعية لم يمنع فرنسا من مراقبة حركة الإصلاح التي بدأت بعد الحرب العالمية الأولى والصاق تهمة الشيوعية بالعلماء .

واستمرت الإدارة الفرنسية في الجزائر تقلل من شأن حركة الإصلاح ، ففي تقرير صدر عام ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) نجده يصرح بثقة بالغة أن الحركات الوطنية في العالم الإسلامي المعاصر ليس لها أي تأثير في الجزائر ، فالشعب الجزائري مازال غافلاً عنها وأن كل اهتمامه منصب على حاجاته المادية فقط ، وفي تقرير آخر صدر عام ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م) يؤكد بأن نشاط ابن باديس ليس له أبعاد سياسية ولا يتعدى حدود النظريات^(١) .

انجازات الجمعية

إذا أردنا تقييم أعمال هذه الجمعية لأفردنا لذلك أكثر من كتاب فهي قد عملت في كل ميادين النهضة الوطنية ، وحرست القيم ، وحافظت على مقومات الشعب الجزائري الدينية والقومية وألبت أبناء الشعب على مظاهر الجهل والتخلف والأمية وعلى الحكم الاستبدادي .

ويقول الشيخ محمد الطاهر فضلاء تلميذ الشيخ ابن باديس وعضو الجمعية في ندوة أقامتها مجلة « العالم » حول الجمعية بمناسبة إعادة نشاطها : « أول شيء وضعته جمعية العلماء مبدأ لحركتها وهدفا لأعمالها هي التربية والتعليم ، وهما معاً مجمعان في صعيد

(١) المصدر السابق ص ٩٠ - ص ٩٢ .

واحد لا يتفصل أحدهما عن الآخر إلا في حال التخصيص اللفظي أو المعنوي ، فالتعليم في نظر الجمعية لا يكون مفيذاً للمتعلم والمجتمع إلا إذا امتزج مع الطريقة التربوية المثلى في تكوين المتعلم تكويناً عملياً صالحاً وكاملاً لعمل الدين والدنيا ، مؤتلفين في عدل ووثام وتفاعل . كما أن التربية وحدها مهما تذرعت بطرق العلم والتجربة من حيث وسائلها وطرائقها لا يمكنها الوصول إلى تكوين الفرد الكامل ، ما لم تأخذ العلم منهاجاً يضئ لصاحبها درب الحياة ، لهذا نجد جمعية العلماء منذ نشأتها ، قد سعت السعي الخثيث لفتح الكتاتيب والمدارس الحرة ثم عمرت هذه الكتاتيب والمدارس طوال ساعات النهار ، وأولى ساعات الليل بالنشء الصغير في أولى مراحلها ، وبالشباب في أول ربيعهم ، أولئك في ساعات النهار ، وهؤلاء في الساعات المسائية الأولى ، تعلم الكل القراءة والكتابة العربية ، وتعمي الكل وتعددهم الإعداد الكامل للتضحية والفداء»^(١) .

وركزت الجمعية نشاطها على مقاومة التبشير ، وسياسة الفرنسة والإدماج فعملت على نشر العربية والثقافة الإسلامية ، بالإضافة إلى محاربة الفكر الخرافي ، وبسبب اتساع نشاط هذه الجمعية أخذت السلطات الفرنسية في محاربتها وتضييق الخناق عليها ، فأصدرت بتاريخ ١٩٣٨/٧/٨ م قراراً يمنع أى شخص من تأسيس مدرسة إلا برخصة خاصة من إدارة الاحتلال ، وبموجب هذا القانون تم إغلاق عدد كبير من المدارس ، ومحاكمة أصحابها .

وكان وزير الداخلية الفرنسي قد أصدر سنة ١٩٣٣ م قراراً يقضى باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية ، ويمنع الخطب والوعظ في المساجد على غير الموظفين في الإدارة الفرنسية . ومع ذلك فقد استطاعت جمعية العلماء زرع وسائل المقاومة للسياسة التعليمية الاستعمارية في الجزائر بإقامتها للمدارس الحرة العربية ، التي سنعرف انتشاراً مهماً خلال المرحلة الثانية من مراحل السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ، فقد نجحت الجمعية في إنشاء ١٨١ مدرسة سنة ١٩٥٤ م منها ٥٨ ثانوية ، تضم نحو ٤٠ ألف تلميذ ، ربما أن السلطات الفرنسية كانت لا تسمح بالتعليم الجامعي العربي الحر فكان هؤلاء التلاميذ يلتحقون بجامعات تونس والمغرب ومصر : فقد كان بالزيتونة نحو ألف طالب جزائري وفي المغرب ١٢٠ وذلك بجامعة القرويين ، وفي الأزهر حوالى ١٥٠ وكان بالجامعات

(١) عل يواروى ، جمعية العلماء المسلمين في الجزائر تستغف نشاطها في ذكرها السنين مجلة العالم ١٩٩١/٧/٢٧ م ص ٣٢ .

الفرنسية ٥٨٩ طالبًا جزائريًا فبرغم الحصار الذي ضربته فرنسا على اللغة العربية والثقافة العربية والإسلامية فإن نخبة معربة أخذت تتكون بوتائر سريعة ابتداء من الحرب العالمية الثانية إلى جانب النخبة « المفرنسة » التي كان يفرزها التعليم الفرنسي بالجزائر ، وسيكون لهذا الانقسام الثقافي في صفوف النخبة المتعلمة أثر كبير في مستقبل الجزائر المستقلة كما سنرى^(١) .

ويذكر أحمد توفيق المدني أنه بعد وفاة ابن باديس وتولى البشير الإبراهيمي الجمعية أسست الجمعية حوالي ١٦٥ مدرسة عربية حرة لتعليم العربية والدين والتاريخ الإسلامي ، وبلغ عدد تلاميذها سنويا ما يزيد عن الخمسين ألفا بين ذكور وإناث ، وتم إنشاء معهد ثانوي للمتخرجين من هذه المدارس في قسنطينة أطلق عليه « معهد ابن باديس »^(٢) .

أما الدكتور نبيل أحمد بلاسي ، فذكر أن المدارس التي أقامتها الجمعية بلغت في سنة ١٩٤٨م حوالي ١٤٠ مدرسة غطت معظم مدن وقرى الجزائر ، وقد نشرت جريدة البصائر المتحدثة بلسان الجمعية قائمة بأسماء مدارسها - عن العام الدراسي ١٩٥٠ - ١٩٥١م وكان ذلك في مجال التعليم الابتدائي ، أما تلاميذ معهد عبد الحميد بن باديس في عام ١٩٥٥م فقد بلغوا ٩١٣ تلميذا^(٣) .

وهناك ٣ مراحل لجهود العلماء التعليمية الأولى من ١٩٣١ - ١٩٣٩م تم فيها تأسيس العديد من المدارس والمساجد والنوادي في أهم المدن والقرى الجزائرية التي وصلت إليها دعوتها ، وامتد النشاط إلى فرنسا حيث تقيم هناك جالية جزائرية بلغ عددها مئات الآلاف كانت على وشك الذوبان فأوفدت الجمعية مجموعة من العلماء برئاسة الفضيل الورتلاني لانتشال الجالية من وهدة الكفر والذوبان وبدأت عملها الدعائي سنة ١٩٣٦م ، وتمكنت الجمعية من تأسيس ثلاثين مركزا لها في باريس وقام العلماء بإلقاء المحاضرات التوجيهية في مبادئ الإسلام وتاريخه وتلقين أبناء العمال الجزائريين مبادئ القراءة والكتابة ، وتعليمهم تاريخ وجغرافية الجزائر . أما المرحلة الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٤م) تجسد نشاط الجمعية مثل سائر الأحزاب الجزائرية نتيجة للحرب العالمية الثانية ، أما في المرحلة الثالثة ١٩٤٤ - ١٩٥٦م وقد توقف نشاط الجمعية في نوفمبر

(١) د . محمد عابد الجابري ، مصدر سبق ذكره ص ١٠٩ ، ص ١١٠ ، ص ١١١ .

(٢) أحمد توفيق المدني ، مصدر سبق ذكره ص ١٨٧ .

(٣) د . نبيل أحمد بلاسي ، مصدر سبق ذكره ص ٦٨ ، ص ٦٩ .

١٩٥٤ ، وذلك بسبب اندلاع حرب التحرير ، وقيام سلطات الاحتلال بحل كل المنظمات الوطنية بما فيها جمعية العلماء ، وفي هذه المرحلة حققت الجمعية إنجازات كبرى أثارت فزع الاستعمار^(١) .

ولم تجد فرنسا بدءاً من ممارسة أساليب الاضطهاد ، ضد الجمعية وتشويه سمعتها فقامت بسلسلة من الإجراءات ضد التعليم العربي فتم إغلاق مدرسة الحديث إحدى أكبر إنجازات الجمعية ، وحكم بالسجن على الكاتب العام لإحدى شعب الجمعية بدعوى شتم قائد بناحيته ، توجيه الاتهام لمسعود بن القون أمين نادى الإرشاد بسرقة عنقود عنب واتهامه بالاستحمام عارياً فى صهريج الحكومة ، اتهام البشير الإبراهيمي بالتحريض على إقامة المظاهرات بدون إذن ، منع بعض العلماء من التدريس مثل بلقاسم ابن ارواق وإرسال منشور إلى المسئولين فى المناطق الجنوبية بالجزائر الخاضعة للحكم العسكرى فى ربيع أول ١٣٥٧هـ مايو ١٩٣٨م يطلب إلقاء القبض على كل من ينتسب لجمعية العلماء ، أو من يفد إليهم من الجمعية ، إغلاق الكثير من المدارس الإسلامية واعتقال العلماء أمثال : عبد العزيز بن الهاشمى ، وعلى بن سعد ، عبد القادر الباجورى ، محمد الكامل ، منع أعضاء الجمعية أو من له صلة بها من الحج عامى ١٣٥٦هـ و ١٣٥٧هـ (١٩٣٨ و ١٩٣٩م) ، حصار وادى سوف لمدة ٣ أسابيع ، واعتقال عدد كبير من المعلمين ، ومؤيدى الإصلاح فى ١٧ صفر ١٣٥٧هـ الموافق ١٨ أبريل ١٩٣٨م ، بالإضافة إلى اتهام العقبي بمحاولة اغتيال الشيخ كحول^(٢) .

ويمكن القول هنا أن الجمعية نجحت فى تهيئة الشعب الجزائرى ذهنياً وحضارياً ودينياً وقومياً لدخول حرب التحرير سنة ١٩٥٤م وهو على وعى تام بماضيه وحاضره وشخصيته ومصيره .

وخير تعبير عن هدف الجمعية هو قالته مغنية الأزرق « تطهير البيت لتهيئة البلد للقومية »^(٣) ، والقومية فى الجزائر لا تعنى المفهوم القومى العام ولكنها تعنى الإسلام الوطنية معاً فى إطار الشخصية الجزائرية العربية .

(١) المصدر السابق ص ٦٦ ، ص ٦٧ .

(٢) ملون صلاح حامد مطيقاتي . مصدر سبق ذكره ص ٢٢٤ .

(٣) منية الأزرق . مصدر سبق ذكره ص ٧٣ .

ويرى الدكتور محمد ناصر أستاذ الأدب العربى بجامعة الجزائر أن المهمة الأولى للجمعية كانت التعبئة الروحية والنفسية والأخلاقية إدراكاً منها أن أى إصلاح يراد له نجاح ، فإتاما ينبغي أن يبدأ بالإصلاح الداخلى لينطلق بعد ذلك إلى الإصلاح الخارجى ، ومن أسباب نجاح الجمعية إيمانها العميق بأن الإعداد الروحى هو السلاح الذى يقاوم الاستعمار اللاتينى الفرنسى استعداداً للمجابهة الميدانية العسكرية إذ لا يكتفى لنجاح المعركة أن نرفع السلاح فى وجه العدو دونما إعداد إيمانى يضمن للمقاوم والمجاهد النفس الطويل والصبر الجميل ، والثبات الذى لا يتزعزع مهما يكن رد فعل الاستعمار قوياً شرساً ، وذلك ما حصل فعلاً ما بين نوفمبر ١٩٥٤م ويوليو ١٩٦٢م حين انطلقت الرصاصة الأولى باسم « الله أكبر »^(١) .

ونجحت الجمعية أيضاً فى وقف دعاية التجنس ونيز الدين وأحكامه ، وانتقاد النواب السياسيون طوعاً أو كرهاً ، إلى ما أصبح يدعى « الإحراز على الحقوق الفرنسية دون التنازل عن الحالة الشخصية الإسلامية ، وأصبح النواب من دعاة التفرس بالأمس ، ينادون باستقلال الدين الإسلامى عن الحكومة ، وبإدخال العربية إجبارياً ضمن المناهج الدراسية وابتعد الشعب عن ألعاب الصوفية وترهاته ، مفضلاً الدين الخالص »^(٢) . وعند إعلان الحرب العالمية الثانية رفضت جمعية العلماء وأعضاء حزب « الشعب » إعلان الولاء لفرنسا ، وكان النواب والموظفون ، ورجال الطرق الصوفية يؤيدون فرنسا . ولذلك حلت الحكومة حزب الشعب وزجت ببعض أعضائه فى السجن ، أما بالنسبة لجمعية العلماء فقد نفت السلطات الفرنسية البشير الإبراهيمى إلى « أفلو » بالجنوب الجزائرى وفرضت الإقامة الجبرية على ابن باديس بالإضافة إلى بعض العلماء الذين كانوا لا يزالون فى السجن ، كما قامت الجمعية نفسها بإيقاف صحفها وهو الأمر الذى استغله الصوفيون بإطلاق الشائعات حول تأييد العلماء لفرنسا فى الحرب ، ولا يوجد دليل واحد على ذلك .

ولعبت جمعية العلماء أيضاً دوراً هاماً للتقريب بين وجهات النظر السياسية الجزائرية ، وفى هذا الإطار دعا الشيخ بن باديس إلى عقد المؤتمر الإسلامى الأول سنة ١٩٣٦ لبحث جوانب القضية الجزائرية والوصول إلى حل يخرج الأمة من حالة اليأس ، ولاقت

(١) على بوراوى . مصدر سبق ذكره ص ٢٤ .

(٢) أحمد توفيق الملى . مصدر سبق ذكره ص ١٨٥ .

هذه الدعوة قبولاً ، من معظم التوجهات والتنظيمات السياسية التي اتفقت على عقد المؤتمر يوم ٧ يوليو ١٩٣٦ بنادى الترقى بالعاصمة وشارك فيه اتحاد المسلمين المنتخبين ، والحزب الشيوعي ، والحزب الاشتراكي ، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وبعض المستقلين ولم يقاطعه سوى « نجم شمال أفريقيا » وأسفر المؤتمر عن عدد من المطالب لم تخرج عن المساواة بين الجزائريين والفرنسيين مع المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية ، وتقرر سفر وفد من المؤتمر لعرض تلك المطالب على حكومة الجبهة الشعبية تحت رئاسة مسيو ليون بلوم اليهودى الفرنسى وفاجأت هذه الحكومة الوفد الجزائرى بموافقتها على مطالبها بشرط التنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامى مما أدى إلى فشل المؤتمر^(١) .

وقد أثار اشتراك العلماء فى هذا المؤتمر انتقادات كثيرة لم تزل ترد حتى الآن لأنها تدعو للمحافظة على الشخصية الجزائرية وتحارب سياسة الدمج فكيف تشارك فى مؤتمر يطالب بالمساواة .

وبرغم ذلك لبث الجمعية دعوة الدكتور بن جلول لعقد المؤتمر الإسلامى الثانى سنة ١٩٣٧ وشارك فيه أيضاً كل القوى السياسية عدا « النجمة » وتقرر تشكيل وفد برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس للتفاوض مع حكومة بلوم على المطالب الآتية :

- ١ - إلغاء كل القوانين والقوانين الاستثنائية .
- ٢ - أن تلغى الولاية العامة الجزائرية ، وأن تكون الجزائر تابعة لفرنسا رأساً .
- ٣ - أن تكون الهيئة الانتخابية بالجزائر واحدة يشترك فيها المسلمون والأوروبيون .
- ٤ - أن يكون للمسلمين الجزائريين نواب يمثلونهم بالبرلمان الفرنسى .
- ٥ - أن يكون الجزائريون فرنسيين بصفة تامة ، مع بقائهم متمتعين بالحقوق الشخصية الإسلامية .

- ٦ - الاستقلال التام للدين الإسلامى ، كاستقلال الأديان الأخرى ، والاتفاق عليه من أموال الأوقاف المسترجعة التى اغتصبها فرنسا منذ أوائل عهد الاحتلال .
- ٧ - اعتبار اللغة العربية لغة دراسة بالمدارس الجزائرية^(٢) .

(١) د. نبيل أحمد بلاسى . مصدر سبق ذكره ص ٧٦

(٢) أحمد توفيق المدنى ، مصدر سبق ذكره ص ٢٥١

ولكن الحكومة الفرنسية قدمت للوفد مشروعاً مقابلاً عرف باسم « بلوم وفيليت » ، وقد فرق هذا القانون بين الحقوق السياسية التابعة بصفة المواطن وبين الحقوق المتعلقة بالأحوال الشخصية ، وفتح الطريق للإدماج التدريجي مع فرنسا^(١) وأثناء المفاوضات قال أحد الوزراء لابن باديس تذكر أن فرنسا معها المدافع ! فأجابه ابن باديس : « وتذكر أنت ، أن الجزائر معها الله »^(٢) وبذلك فشلت المفاوضات بعدما رفض العلماء المشروع الفرنسي الذى لم يؤيده سوى اتحاد المسلمين المنتخبين ، وادى فشل المفاوضات إلى انتقال الحركة الوطنية الجزائرية إلى مرحلة جديدة اتفقت فيها كل الآراء على الاستقلال دون الاتفاق على وسائل تحقيقه .

وموقف جمعية العلماء السابق لا يمكن اعتباره دعماً للاندماج ، ولكنه فى الحقيقة الحصول على حقوق الجزائريين ، ما دامت فرنسا تعتبر الجزائر قطعة منها فما الضرر بالمطالبة بالمساواة إذن ، ما دام الأمر الواقع هكذا ، ولكنها فى نفس الوقت لم تفرط فى الإسلام ولا اللغة العربية ، وكان ذلك واضحاً فى المطالب التى عرضها ابن باديس بالإضافة لإعلانه مرات عديدة « إننا لا نريد اندماجاً ، ولا نحن نريد استقلالاً » وهذا يعنى أنه كان يعنى الظروف الدولية المحيطة به ، ويعرف القدرات المحلية التى يحاول أن يحركها وهو الأمر الذى كان يصعب عليه فيه الاستقلال قبل تهيئة البلاد واستعادة الشخصية الجزائرية وإعادة تركيبها إسلامياً وعربياً وجزائرياً من جديد .

والدليل الآخر على سعة أفق الجمعية أن المستوطنين وأنصارهم فى جهاز الإدارة الفرنسي ، وأيضاً رؤساء البلديات هددوا بالاستقالة الجماعية ، وكذلك رؤساء البلديات إذا أقر البرلمان الفرنسي المشروع الذى يطالب بالمساواة لأنه خطوة تحرزها الحركة الوطنية الجزائرية ، قد تتلوها خطوات أخرى مما يهدد مصالح المستوطنين .
فما دام الاستقلال لم يكن متاحاً آنذاك فما ضرير المساواة مع الاحتفاظ بحقوق الشخصية الجزائرية الإسلامية والعربية .

وكان من ثمار المؤتمر الإسلامى المنعقد فى ٧ يونيو ١٩٣٦ تأسيس جمعية شباب المؤتمر الإسلامى ، كمنظمة سياسية للعمل بكل الوسائل العلنية لتحقيق عريضة المؤتمر ، وتوحيد جميع الشباب ، ورغم أن الأعضاء المؤسسين لهذه الجمعية لم يكونوا من قادة

(١) د . نبيل أحمد بلاسى . مصدر سبق ذكره ص ٧٧

(٢) أحمد توفيق المننى . مصدر سبق ذكره ص ٢٥٣ .

جمعية العلماء ، إلا أنه حين عقد الاجتماع العام في ٧ جمادى الثانية ١٣٥٦ هـ الموافق ١٥ أغسطس ١٩٣٧ تم اختيار الفضيل الورتلاني أحد تلاميذ ابن باديس رئيساً ، وكان من أولى أعمالها إرسال بركات الاحتجاج ضد المظالم الواقعة في فلسطين ، وتأسيس لجنة من الشباب لإغاثة فلسطين ، ثم أعلن الجميع الثقة التامة والتقدير الذي لا حد له لما تقوم به جمعية العلماء من نشر مبادئ الإسلام الصحيح ، وما تسديه لهذه الأمة من الآراء الحكيمة . ويدور أن عدم إعلان أية صلة بين الجمعية وجمعية العلماء يرجع للحذر من السلطات الفرنسية بالامتناع عن إصدار الترخيص المطلوب ، وتشير المصادر أيضاً إلى أن الأمين العمودي تولى أيضاً رئاسة هذه الجمعية التي ضمت الآلاف بعد تأسيسها على يد رشيد قرطبي وحموده أحمد وغيرهما .

وكانت تلخص نشاطات تلك الجمعية في عقد المؤتمرات الشهرية المنظمة ، واجتماعات للدعاية السياسية ، والجولات داخل القطر ، وكذلك إعطاء دروس في اللغة العربية للأطفال وماسحي الأحمدة ، وتميز تنظيم الجمعية بميله إلى الطريقة العسكرية حيث يرتدى الأعضاء القمصان الزرقاء الفاتحة اللون في عروض الجمعية ، كما أنهم جعلوا طريقة اتصال المسؤولين بالأعضاء بالطريقة العسكرية ، ولم يخرج برنامجهم السياسي عن برنامج المؤتمر ، وقد رفضوا إعلان الولاء لفرنسا عام ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) مثلهم في ذلك مثل جمعية العلماء ، كما أن فكرة الاستقلال وإن لم تلق القبول من جميع الأعضاء إلا أنها كانت تطرح دائماً في اجتماعات قادة الجمعية مما جعل وجود تقارب بينهم وبين حزب الشعب رغم الاختلاف في الأساليب السياسية^(١) كما أقامت الجمعية أيضاً جمعية التربية والتعليم الإسلامية لتعنى بوجه خاص بالنشاط التعليمي في مجالات الإصلاح الإسلامي ، وكان الأساس الفكري لها هو نفس الأساس الفكري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين^(٢) .

وأنشأت الجمعية أيضاً جمعية التجار في قسنطينة بهدف إيجاد صيغة للتعاون بين التجار المسلمين والمشاركة في الأعمال الخيرية ، ورفع المستوى الاقتصادي للجزائريين وأسهمت بعد الحرب العالمية الثانية بتأسيس شركة كبيرة باسم شركة (آمال) ، كان لها دورها في تعاون التجار المسلمين واتحادهم ، وظهر أثرها في مشاركتهم في المشاريع

(١) مازن صلاح حامد مطبقاتي . معسكر سبق ذكره ص ١٨٧ .

(٢) د . محمد فتحى عثمان . معسكر سبق ذكره ص ٧٣ .

الخيرية من بناء المساجد والمدارس والنوادي ومساعدة الفقراء بالإضافة إلى أن رجال الجمعية فكروا في إقامة نهضة صناعية في البلاد ، كما يتضح من مواد قانونها الأساسي - لجمعية التربية والتعليم - إنشاء معمل للصنائع ، كما دعت الجمعية إلى مقاطعة البضائع الأوربية مما يعنى نوعاً من الاستقلال الاقتصادي المحلي الضيق^(١) .

وهكذا نرى أن تأسيس جمعية العلماء كان الحد الفاصل بين ماضى الجزائر المظلم تحت نير الاستعمار ، وبين حاضرها الذى أشرق فى ميدان النهضة الإسلامية والعربية وكان ذلك الحاضر الجديد الذى شكلته جمعية العلماء ، هو الأساس الراسخ الذى بنى عليه مستقبل الجزائر تحت راية الاستقلال .

فالجمعية هى التى غيرت أوضاع الجزائر دينياً وعلمياً وأخلاقياً واجتماعياً ، كانت تبث روح الإيمان الخالص والوطنية الحققة ، وأخلاق الفضيلة والرجولة الكاملة ، ثم اختلطت بها فى خط مواز لأعمالها ، دعاية حرب الاستقلال ، فسارت ضمن خلافاً ظاهرياً أو شخصية ، نحو هدف واحد ، فى طريق واحد ألا وهو هدف التحرير لكامل ، وطريق الثورة العارمة^(٢) .

ومهما اختلفت الآراء حول دور هذه الجمعية فهى فى النهاية كانت تمثل قوة الوسط بين قوى الجزائر ، أكبر الهيئات التى تركت آثار واضحة فى الجزائر دون أن تغير من اتجاهها العام آنذاك^(٣) .

كما جاء تأكيد العلماء المسلمين على وجود قومية جزائرية مقوماتها الإسلام والعروبة فعاد كثير من الجزائريين إلى دينهم ، كما أفتى هؤلاء بردة من يتخلى عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامية للحصول على صفة المواطن الفرنسى ، وكانت هذه لطمة واضحة أصابت السياسة الفرنسية فى الجزائر ، وساعدت على التميز بين الصفات الجزائرية والصفات الفرنسية ، وبالتالي على نضج الشخصية الجزائرية ونموها وتطورها^(٤) وهى الشخصية التى انخرطت فى الجهاد المسلح ضد الاحتلال ، وهو ما يعترف به عباس

(١) مازن صلاح حامد مطبقاتى . مصدر سبق ذكره ص ٨٨ ، ص ٨٩ .

(٢) أحمد توفيق اللنى . مصدر سبق ذكره ص ١٨٦ .

(٣) د . جلال يعنى . السياسة الفرنسية فى الجزائر . القاهرة . معهد الدراسات الإدارية ١٩٥٩ ص ٢٨٣ .

(٤) د . محمد نصر منها ، د . عبد الله سيد هديه : تجربة التنمية والتحديث فى الجزائر . دار الثقافة

الجديدة القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٧٩ ص ٢٠ .

فرحات رئيس حكومة الثورة الجزائرية فى المنفى عندما يقول : « كان الجزائريون المتخرجون من جامعة الزيتونة فى تونس والأزهر فى القاهرة وهم الذين شكلوا جمعية العلماء ، يجعلون من نهضة الإسلام والعروبة الشرط الأول للنهضة الجزائرية ، وكان أنصارهم من جماهير الفلاحين يشكلون أعداداً ضخمة فقد كان الشعب الجزائرى ينطوى على نفسه ويتمسك بقوة بعقيدته الدينية فى مواجهة القهر الاستعمارى والاستثمار العنصرى ، وكان لابد لهذا التيار أن يؤثر بقوته على كل التيارات السياسية فى الجزائر باتجاه طريق الثورة ويؤكد ذلك عبد الباقي على محمد ، أستاذ التاريخ بجامعة قسنطينة بقوله : « إن الدور الذى اضطلعت به جمعية العلماء فى الجزائر كان هو الدعامه التى قامت من خلالها وفى إطارها الثورة الجزائرية الحديثة »^(١) .

وعند اندلاع الثورة وضع العلماء أنفسهم تحت تصرف الجبهة وذلك فى اجتماعهم الذى دعا إليه المدنى فى قسنطينة لتأييد الثورة ، ولأنه على حد قوله « كنت من القلائل الذين يعرفون هذا اليوم » ، كما لعب الشيخ إبراهيم مزهودى دوراً هاماً فى اتصال العلماء بجيش التحرير الوطنى الجزائرى ، حيث تولى منصب القائد المساعد للولاية الثانية ودور العلماء فى حرب التحرير والبعث الإسلامى لجبهة التحرير سنشرحه بالتفصيل فى الفصل المقبل .

ومما يؤكد قوة هذه الجمعية وتغلغلها فى الوجدان الجزائرى أنه بعد إلغائها بعد التحرير وسيطرت جبهة التحرير على الحكم ومحاصرتها للإسلام ، فإنه فى الفترة الديمقراطية القصيرة التى عاشتها الجزائر أعادت الجمعية تأسيس نفسها عام ١٩٩١ وانخرط فيها الكثير من أبناء الشعب الجزائرى مما يعنى تمكن هذه الجمعية من الوجدان والعقل الجزائرى .

(١) محمد مورو . مصدر سبق ذكره ص ٧٦ .

المبحث الثاني

دور ابن باديس في توظيف الإسلام سياسياً

تأتي أهمية أفراد مبحث لدراسة ابن باديس ، ليس لكونه مناضلاً سياسياً ، وإنما لكونه مصلحاً في حدود ما يسمح به وفاءه المطلق للشريعة ، ولأنه قاد عملية العودة إلى الذات الجزائرية التي كانت قد ضاعت بفعل التشويه الاستعماري ، ولأنه كما يقول المنصف وناس في كتابه « مفهوم المشاركة السياسية في المغرب العربي » : إن أهمية نص ابن باديس ليست المدلول السياسي المباشر ، فذلك ثانوي ، وإنما الفهم للشريعة المميز للعصر ، أن هذا الفهم هو جوهر الإصلاح المقترن لاعتبارين اثنين :

- لقد هيمنت قراءة ابن باديس على التاريخ السياسي الجزائري المعاصر ، وشكلت نموذج قراءة أصولية .

- لقد كانت هذه القراءة معددة أيضاً لتطور الفكر الجزائري المعاصر ، وخاصة السلفي منه ، من خلال الحرص على العودة بقوة إلى مجال العمل السياسي الوطني .

إذن ، إن أهمية ابن باديس ، هي في إضافته إلى الفكر السلفي الجزائري وإعادة إنتاجه للمنظومة الإسلامية ، وإسقاطه على العمل السياسي^(١) . وهو التزام الصحيح الصريح مما كان عن النبي - ﷺ - وكان عليه أصحابه ، فكل قول يراد به إثبات معنى ديني لن نجد في كلام أهل ذلك العصر نكون في سعة من رده وطرحه وإماتته وإعدامه كما وسعهم إعدامه ، ونرى كل فتنة كانت بين الفرق الإسلامية ناشئة عن مخالفة هذا الأصل^(٢) .

(١) المنصف وناس: مفهوم المشاركة السياسية في المغرب العربي. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١ ص ٥٩

(٢) د. عمار الطالبي : ابن باديس حياته وآثاره الجزء الرابع . دار العرب الإسلامي بيروت لبنان ١٩٦٨ :

مناظرة بين سلفي ومعتزلي في مجلس الوراق ص ٢٤٣ - ص ٢٤٤ .

بالإضافة إلى كون ابن باديس هو الأب الروحي للحركة الإسلامية الحالية في الجزائر ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس في الخامس من ديسمبر سنة ١٨٨٩ بمدينة قسنطينة وانحدر من أسرة تنتهى إلى المعز بن باديس الصنهاجى مؤسس الأسرة الصنهاجية التى خلفت الفاطميين على عرش القيروان ، وربما كان وصول ابن باديس للزعامة الدينية امتداداً لأمجاد أسرته التاريخية ، سواء من ناحية والده أو من ناحية والدته التى انحدرت أيضاً من عائلة بن جلول ، التى برزت فيها بعض الزعامات السياسية ، وقد لعبت نشأته الأسرية دوراً كبيراً فى تكوين شخصيته وبلوغها مرتبة الزعامة^(١) كما أعانت عبد الحميد بن باديس مكانة أسرته الاجتماعية على أن يتحرر من الحاجة للتوظيف لدى السلطة الاستعمارية ، وأن يخصص حياته لدعوته وجهوده الإصلاحية .

وقد درس عبد الحميد فى قسنطينة بالجزائر ، ثم فى الزيتونة بتونس منذ سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م ، ثم رحل إلى الحجاز سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م حيث كانت ، لدعوة السلفية التى عرفها شبه الجزيرة العربية منذ أيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب قوية ومنتشرة .. وفى المدينة المنورة اتصل فيها بشيخه : حمدان الوئيس المهاجر الجزائرى ، وحسين أحمد الخندى ، وأشار عليه الأول بالهجرة إلى المدينة ، وقطع كل علاقة له بالوطن (على غرار ما فعله الوئيس) ، وأشار الثانى بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد ، ويقول ابن باديس « فرجعنا إلى الوطن بقصد خدمته ، فنحن لا نهاجر ، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية فى هذا والوطن » ولم تكن القومية فى رأى ابن باديس إلا الحفاظ على شخصية الشعب الجزائرى الإسلامية العربية أمام الفرنسية^(٢) .

البناء الفكرى عند ابن باديس

الأصل الثابت ، عند ابن باديس ، هو الأصل الدينى فى إطار ثنائية أساسية فى فكره : الجوهرى ، والعرضى ، حيث يقول فى الرد على الشيخ الطاهر بن عاشور : « لماذا التذيل ، بدل التذليل والتأصيل ؟ » ويضيف فى موقع آخر : « فيجب على من ولاه الله أمر المسلمين شيئاً من السلطان والخلائق أن يمنعوا هؤلاء الطوائف (يقصد أتباع الطرق الصوفية) ، من الحضور فى المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ،

(١) د . نبيل أحمد بلاسى . مصدر سبق ذكره ص ٩١ .

(٢) د . محمد فتحى عثمان . مصدر سبق ذكره ص ٣٧ - ص ٢٨ .

أن يحضر معهم يعينهم على باطلهم ثم إياكم ، والبدع ، فإنها تترك مراسم الدين خالية خاوية ، والسكوت عن المناكر يحيل الشرائع ذابلة ذاوية ...^(١) .

فالخط الفكري الذي انتهجه ابن باديس في الإصلاح هو إبراز العلة وأصل الداء في مجتمعات المسلمين المعاصرة بوجه عام ، وفي المجتمع الجزائري بوجه خاص ، فأكد مراراً وتكراراً أن علة العلل لتدهور المسلمين في حياتهم الفكرية والعلمية إنما هي الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله « فالخسران الذي وعد به الله من خالف الكتاب والسنة ، وإن كان موجهاً للمشركين إلا أنه من نصيب أهل البدع والضلال في المجتمع الإسلامي » ، « فهجرتنا ذلك - أي هدى الكتاب والسنة - كله ، ووضعنا أوضاعاً من عند أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا خرجنا في أكثرها عن الحنفية السمحة إلى الغلو والتنطع ، وعن السنة البيضاء إلى الأحداث والبدع ، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي والتخيل الفلسفي ما أبعدنا غاية البعد عن روح الإسلام ، ألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام^(٢) » فالرجوع إلى كتاب الإسلام وسنة رسوله دون سواها يتحرر المسلمون إذ يعودون إلى المنبع الأصل الصافي للإسلام ، فيتخلصون من البدع والأباطيل والخرافات ويتطهرون من جرائم التواكل والخنوع والجمود والتزمت ، والحق أن الحرص على السلفية في ديننا هو أقصر الطرق إلى المعاصرة ، فالصحيح الثابت لا يصادم الفطرة والعقل ، ولا يستحيل تطبيقه في بيئة أو عصر^(٣) .

فتمت تركيز على أهمية التمسك بالأصل رغم حرص ابن باديس على تأكيد انتمائه إلى مدرسة رشيد رضا ومحمد عبده واحتكاكه بيدايات التجديد في جامع الزيتونة ، الذي تعلم فيه العلوم الإسلامية التقليدية ، فإن ابن باديس بقي سلفياً ، قليل الحماس للتحديث ، ولعل هذا ما يفسر خلافاته مع بعض رموز المؤسسة الزيتونية ، الذين كانوا على درجة من الحرص على التجديد ، ذلك أن ابن باديس ينظر إلى التجديد والإصلاح ، باعتبارها عودة مطلقة إلى الدين ، الأصل ، ومن ثم إصراره على تأكيد سلفيته وجهده في إصلاح الإسلام وصولاً إلى ما يجب أن تكون عليه السنة حتى أواخر القرن العشرين .

(١) للتصنيف ونلس - مصدر سبق ذكره ص ٦٠ .

(٢) تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام المعلم الخير - دار الكتاب الجزائري بالجزائر ١٩٦٤

ص ٢٢٧ - ص ٢٤١ .

(٣) د . محمد قحوي عثمان . مصدر سبق ذكره ص ٤٠ .

وسواء اتفقنا أو اختلفنا حول أهمية البعد الإصلاحي والتجديدي ، فإنه تجدر الإشارة إلى أن نظرية ابن باديس لا تحتل « التخوم » ، باعتبارها قائمة الذات مكثفة بالإسلام ، الأصل ، غير عابئة بكل إضافات لا تتلاءم مع هذا النص ، لأنها تعتبر بدعاً .

وليس أدل على ذلك من الموقف المحترز الذي أبداه ابن باديس من الحركة الوهابية التي تعتبر مشروعاً سياسياً ودينيّاً متكاملًا ، وبرر ذلك بقوله : إذ كان النجديون (سكان نجد آنذاك هم السكان الأصليون للمملكة العربية السعودية حالياً) يتمتعون للشيخ محمد عبد الوهاب ، باعتباره مصلح بلادهم ، فنحن لا يمكن أن ننتمى إليه إطلاقاً ، لأننا لم نكن من تلامذته ، ولن نمارس معه عمله المباشر ، وإن احترامنا للحقيقة ولأنفسنا يمنعنا من إنكار صلاتنا بأية جهات كانت ، مثلما يمنعنا من الانتماء بطلاناً إلى أية جهة كانت ^(١) .

وهذا التوجه يعنى ويؤكد اتجاه الجزائر الذي يميز الحركة الإسلامية الجزائرية سواء أيام ابن باديس أو الآن وهو تيار قوى داخل جبهة الإنقاذ الإسلامية بالجزائر ، التي فازت في الانتخابات المحلية عام ١٩٩٠ ، والتشريعية عام ١٩٩١ م . ويؤكد الاستنتاج السابق الكاتب الفرنسي « جان لاكوتير » مؤلف كتاب Hommes حيث قال بأن العلماء هم الذين وضعوا فكرة الوطن الجزائري ، إذ قال إن مجددي فكرة الوطن الجزائري هم بالأحرى هؤلاء الذين أسسوا جمعية العلماء ، أي الشيخ عبد الحميد وأشد أتباعه حماسة كالشيخ الإبراهيمي والعقبي ، فمنذ سنة ١٩٣٠ نرى في الواقع أن هؤلاء الرجال ذوي الثقافة الرفيعة والعلم الواسع ، وهم من أقوى الشخصيات الإسلامية في المغرب المعاصر ، قد ربطوا محاولتهم لتجديد الإسلام والقضاء على الطرق الصوفية بمحاولة تجديد الوطن الجزائري ^(٢) ، وهذا يعنى أن انشغال ابن باديس بفكرة الوطن الجزائري هي التي جعلته منكباً على الإسلام الصافي يأخذ منه ما يصلح ويعيد الجزائر الإسلامية ، ولذلك كانت النماذج الأخرى لا يمكن أن تصلح للجزائر ، وذلك لاختلاف الظروف ، فالجزائر كانت نموذجاً فريداً بين دول العالم العربي فالاستعمار الفرنسي دمجها قسراً مع فرنسا ، وحاول تغيير هويتها عنوة ، طوال قرن وأكثر من ثلاثين سنة ، ولذلك كان الخطاب الباديسي ، خطاب الكليات والأساسيات والعودة إلى الذات ، كاهوية والدين والثقافة

(١) المصنف ونلس . مصدر سبق ذكره ص ٦٢ - ص ٦٣ .

(٢) د . نيل أحمد بلاسي . مصدر سبق ذكره ص ٩٧

والتعليم مع الحرص على نقاوة الدين خطاب المعتدل في اجتهاده ، العالم بظروف وطنه ، فهيمنة الخطاب الشرعي الديني كانت مطلقة ، فجوهر عمل ابن باديس لم يكن سياسياً ، وإن كان في بعض المراحل قد اتسم بذلك ، ولكنه كان خطاباً دعوياً رسالياً ، يهدف لإعادة الإنسان إلى دين الله من جديد ، ويحمي المتيقين من الجزائريين الذين كانوا ما يزالون قابضين على جمرة النار ، فالمعركة في الجزائر كانت دينية أكثر من كونها سياسية فالدين واللغة كانا هدف الاحتلال قبل الأرض ، فالمعركة كانت إحدى الحروب الصليبية ، لذلك كان يجب تقديم الدين على السياسة وتحصين وجدان الفرد قبل الدفاع عن الأرض .

الخطاب السياسي والديني لدى ابن باديس

على الرغم من أن ابن باديس كان يهيمن على خطابه الديني أكثر من السياسي إلا أن خطواته الإصلاحية في المجال الثقافي والتعليمي والاجتماعي تعتبر بحق عملاً وطنياً سياسياً عميق الجذور على المدى الطويل ، وذلك لو نظرنا للأمر في ظروفه الموضوعية ، ففرنسا كما رأينا زعمت أن الجزائر قطعة من فرنسا ، وذلك طبقاً للأمر الصادر في ١٨٣٤/٧/٢٢ ، وقررت في مرسوم بتاريخ ١٨٤٨/٣/٤ بعد عام من إخماد ثورة الأمير عبد القادر الجزائري أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا . وأغلقت فيما بعد نحو ألف مدرسة عربية كانت قائمة حين احتلالها سنة ١٨٣٠ وكان السبيل لمواجهة هذه المؤامرة ، هو تأكيد شخصية الشعب الجزائري المسلم العربي ولذلك قال كاتب فرنسي في جريدة Le Cocorde عن « جمعية العلماء » التي أنشأها ابن باديس : « إن سياستهم الحاضرة تنحصر في المراقبة بحسن الثقافة والدين ، وهكذا يتدخلون في كل شيء وينتظرون أن يتقدم رجال آخرون لاستعمال السلاح الذي يصقلونه الآن بأيديهم ويعدونه » وبلور ابن باديس مفهوم الشخصية الجزائرية المتميزة على أساس أصولها الإسلامية والعربية ، وكان بهذا التأصيل الديني في صميم العمل السياسي الجذري . وشعار صحيفته « المنتقد » التي أصدرها سنة ١٩٢٥ كان : « الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شيء » .

فماذا يعني « الوطن » وماذا تكون « الأمة » عند ابن باديس إذن ؟ إن الوطن عنده ليس قطعة من الأرض ولا كومة من تراب ، إنه كيان حي من البشر المسمين الذين يعيشون فيه « نحن الجزائر ، وما الجزائر إلا الجزائريون » و « الأمة » عده كيان إنساني إسلامي ، أقوى مقوماته وأخص خصائصه الإسلام ، وليس مجرد تم-

عرقى ، « والعروبة » و « العربية » عنده ملتصقان مع الإسلام لانتفكان عنه ، وحاجز متين يحول دون « التذويب » الثقافي الذى تستخدمه فرنسا ليظهر « الإدماج » السياسى^(١) . وأكد ابن باديس فى كتاباته وأحاديثه أن الإسلام عنده هو الأصل للكيان الجزائرى ففى بيان بليغ قال « لمن أعيش أنا ؟ أعيش للإسلام والجزائر » ، وحول من قد يرى أن هذا ضيق فى النظر وتعصب للنفس وقصور للعمر يرد ابن باديس : نعم إن خدمة الإنسانية فى جميع شعوبها والحرب عليها فى جميع أوطانها واحترامها فى جميع مظاهر تفكيرها . ونزاعاتها ، هو ما تقصده ونرمى إليه ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة ، ونحن لما نظرنا فى الإسلام وجدناه الدين الذى يحترم جميع أجناسها ، ولما عرفنا أنه دين الإنسانية الذى لا نجاة لها ولا سعادة إلا به وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله ، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا عن طريقه ، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته ، فإذا عشت له فإننى أعيش للإنسانية : لخيرها وسعادتها فى جميع أجناسها وأوطانها ، وفى جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها ، وما كنا لنكون هكذا إلا بالإسلام الذى ندين به ونعيش له ونعمل من أجله ...

أما الجزائر فهى وطنى الخاص .. والذى تربطنى بأهله روابط من الماضى والحاضر والمستقبل بوجه خاص ، وتفرض على تلك الروابط لأجله - كجزء منه - فروضاً خاصة ، وأنا أشعر بأن كل مقوماتى الشخصية مستمدة منه مباشرة ، فأرى من الواجب أن تكون خدمتى أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة ، وما مثلنا فى وطننا الخاص - وكل ذى وطن خاص - إلا كمثل ذوى بيوت من قرية واحدة ، فبخدمة كل واحد لبيته تتكون من مجموع البيوت قرية سعيدة راقية ، فنحن إذا كنا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها ولا للإضرار بسواها معاذ الله ، والآن أيها الإخوان وقد فهمتمونى وعرفتم سمو فكرة العيش للإسلام والجزائر ، فهل تعيشون مثلى للإسلام والجزائر ، فلنقل كلنا : ليحيا الإسلام ، لتحيا الجزائر^(٢) .

(١) د . محمد فتحى عثمان . مصدر سبق ذكره ص ١٠٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٢ - ص ١٠٣ نقلاً عن مجلة الشهاب ج ١٠ / م ١٢ فى غرة شوال ١٣٥٥ هـ .

- يناير ١٩٣٧ م .

فالمشاعر القومية مرتبطة لديه دائماً بالمشاعر الإنسانية وكلاهما مرتبطتان العقيدة الإسلامية ولكن الجزائر لديها كانت محور حياته . فبخدمة الوطن الجزائري يكون قد خدم الإنسانية جمعاء ، فالحلية أو الإقليمية لديه هي جزء من الأمة التي يدعو لها الإسلام .

أما الوطن والوطنية لدى ابن باديس فيشرحهما في مقال تحت عنوان « الوطن الوطنية » ، نشر في الشهاب (ج ٧ / م ١٣) بعددها الصادر في رجب ١٣٥٦ هـ / سبتمبر ١٩٣٧ م جاء فيها : « ... لا يعرف ولا يحب الوطن الكبير إلا من عرف وأحب الوطن الصغير ، والناس إزاء هذه الحقيقة أربعة أقسام : قسم لا يعرفون إلا أوطانهم الصغيرة (بيوتهم وأسرها) ، وهؤلاء هم الأثانيون وهم في الغالب لا يكون منهم خير حتى لأقاربهم وأهل بيوتهم ، وقسم يعرفون وطنهم الكبير فيعملون في سبيله كل ما يرون فيه خيره ونفعه ، ولو بإدخال الضرر والشر على الأوطان الأخرى ، بل يعملون دائماً على امتصاص دماء الأمم والتوسع في الملك لا تردهم إلا القوة وهؤلاء شر وبلاء على غير أمهم بل وعلى أمهم ، وقسم زعموا أنهم لا يعرفون إلا الوطن الأكبر وأنكروا وطنيات الأمم كما أنكروا أديانها وعدوها مفرقة بين البشر ، وهؤلاء عاكسوا الطبيعة جملة ، وما عرفته البشرية منذ آلاف السنين ودلائل الفشل على تجربتهم ، حيث أجروا تجربتهم لا تكاد تخفى ، وقسم اعترف بهذه الوطنيات كلها ونزلها ومنازلها غير عادية ولا معدو عليها وربتها تربيها الطبيعي في تدرجها ، وهذا الرابع هو الوطنية الإسلامية العادلة ، إذ هي التي تحافظ على الأسرة ، بجميع مكوناتها ، وعلى الأمة بجميع مقوماتها ، وتخدم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها ، وهذه هي وطنيتنا معشر المسلمين الجزائريين الأفارقة ، ووطنية كل مسلم صادق في إسلامه ووطنيته .. (١) » .

فالوطنية عند ابن باديس ، وكذلك الوطن يعرفهما في إطارها الإسلامي أيضاً والذي يرى من وجهة نظره أنها تعنى الاعتراف بالأوطان والأمم بشكلها الطبيعي ، وهذا ما يدعم فكر الجزائر لديه ، وخصوصية الوطن والشعب الجزائري وإن كان يرى إمكانية أن يدوم الاتحاد بين شعبين مختلفين في الجنسية القومية إذا تناصفا وتخالصا فيما ارتبطا به من الجنسية السياسية التي قضت بها الظروف واقتضتها المصلحة المشتركة .

(١) المصدر السابق ص ١٠٤ .

فثنائية السياسى - الدينوى ، لا يوجد لها وجود مستقل ، إلا بقدر ما تدعم الدينى ، فالسياسى فى حياة الشيخ ابن باديس يمارس « مبدأ التخفى والتجلى » فيحضر كلما دعم الدينى والشرعى ، ويختفى كلما كانت الحاجة ضرورية لهيئته ، الخطاب الدينى والسياسى مكمل للدين ، وليس موجها له ، لما تقدم من الأسباب .

وهنا تكمن خصوصية الخطاب الباديسى المتمثلة فى غياب المستوى الدينوى بجانب المستوى الدينى الذى كان الأكثر وجودًا .

لقد كان ابن باديس نموذجًا للعالم السلفى المناضل فى سبيل إسلام « تقى وظاهر » وظل هكذا حتى مماته ساعيًا لتحقيق هذا « الحلم » .. ليكون بذلك علامة بارزة فى تاريخ الفكر السلفى الجزائرى ، « مدشنا » بداية ونهاية السلفية الوطنية ، وتمثل « وطنيته » فى حبه للجزائر ، ودفاعه عن هويتها الأمر الذى سبب له المضايقات ، إلا أن سلفيته بقيت تقليدية الطبع مالكية الجوهر ، وسنية التوجه عمومًا ، رغم عدم إيمانه بالظاهر بتعدد المذاهب ، لأن الإسلام واحد ، كما يقول ومن ثم كانت نظرية ابن باديس الأساس الأيديولوجى الحقيقى لحركة السلفية الجزائرية منذ ذلك الوقت وحتى الآن ، فخلقت أجيالاً متعددة وقدمت لها المنطلقات الأساسية ، لدخول العمل السياسى الوطنى وتحقيق تطلعات التحرر والبناء والتحديث ، ولذلك كانت السلفية حاضرة ، ومؤثرة رغم تبنى الجزائر الاشتراكية العلمية فى ميثاق الجزائر ١٩٦٤ والميثاق الوطنى ١٩٧٦ ، فلسفية اليوم ، تنتمى روحًا وجوهرًا إلى محاولة ابن باديس الإصلاحية ، بل إنها فى بعض ملامحها لم تتجاوز حدود المشروع الباديسى - كما يقول المنصف وناس فى كتابه مفهوم المشاركة السياسية فى المغرب العربى^(١) وهو ما سنراه جليًا عندما نتناول الحركة الإسلامية المعاصرة لذا كان من الضرورى إفراد هذا المبحث .

(١) المنصف وناس . مصدر سبق ذكره ص ٦٦ - ص ٦٧ .